



تلخيص كتاب العدوان على اللغة العربية

د. عبدالرحمن رأفت الباشا.



الفهرس

٣	قيمة اللّغة في حفظ كيان الأمم:
٤	العدوان على لغة القرآن:
٤	بداية العدوان:
٥	مظاهر العدوان على العربيّة:
٥	إحلال العامية محلّ العربية:
٦	إحلال الحرف اللّاتيني محلّ الحرف العربيّ:
٧	الضّربات الخفيّة:
٨	مميزات اللغة العربية:
٨	لغتنا ليست ملكاً لشعبٍ بعينه:
٩	تفرّد لغتنا وتمييزها:
١١	حقّ أبنائنا علينا:

أرض جزيرة العرب كانت منبعًا للغة العربيّة وموئلًا للقرآن، وستظلّ كذلك حتّى قيام الساعة، وستحمي القرآن ولغته بإذن الله.

فما أهميّة هذه اللغة التي بذل لها أسلافنا ما بذلوا، وجاهدوا من أجل حفظها وبقائها ما جاهدوا؟ ما قيمة هذه اللغة التي نفسح لها اليوم مجالًا رحبًا في مدارسنا ومعاهدنا وكيّاناتنا؟

إنّما لغتنا التي حفظت علينا شخصيّتنا، وربطت شعوب أمّتنا، وقرّبت بين مشاعرهم، وواءمت بين أفكارهم، وحفظت كياننا من التفرّق، ووحدت كلمتنا على دفع العدوان؛ وهي فوق ذلك لغة القرآن ووعاء الدّين ومستودع الحضارة.

وليست هذه مزيّة اللغة العربيّة فقط؛ فكلّ اللّغات على نفس الشّاکلة تستطيع جمع شمل الشعوب، والأمثلة كثيرة، فمثلاً:

(١) **ألمانيا:** كانت ألمانيا متفرّقة متنازدة حتّى نادى هرذر بأهميّة اللغة في لمّ الشّمل، فعكف أدباء الحركة الإبداعية على تراثهم القديم ونسجوا منه قصصًا وقصائد، وتغنّوا بطبيعة بلادهم، فتجمّعت العواطف على حبّ الوطن الكبير، فمهّد الطّريق أمام بسمارك الذي قام بالوحدة الكبرى.

(٢) **ايرلندا:** تشبّثت ايرلندا وشعبها في ظلّ الاستعمار البريطانيّ، فقد عذّب البريطانيّون الايرلنديّين أشدّ العذاب، ثمّ قاموا بمحو شخصيّة ايرلندا بالقضاء على لغتها ودمجها في بريطانيا؛ ولما تنبّه لذلك فوجّ وحاولوا أن يحقّقوا لأمتهم شخصيّتها المميّزة، رأوا أنّه يجب عليهم استعادة لغتهم، فوضع المعلّم ديفاليرا كتبًا سهلةً للغة، فساعدوه بنشرها وتدريسها، واستطاعوا استعادة كيانهم وتحقيق استقلال بلادهم، وكافأوا معلّمهم بأن جعلوه أول رئيسٍ لجمهوريّةهم الحرّة.

ولغتنا العربيّة ليست قوميّةً فحسب، وإّما هي لغةٌ دينيّةٌ أيضًا؛ فهي تجمع العرب، وتجمع حولهم المسلمين من غير العرب أيضًا، وتجعل منهم سندًا قويًّا لها.

وعندما علّم العدو أثر اللّغة، قام بالعمل لاستعمار الأمم عن طريق اللّغة.

العدوان على لغة القرآن:

لقد جنّد أعداء الإسلام لحرب لغتنا طائفةً كبيرةً من دهاقينهم، واندفع وراء هؤلاء نفرٌ من أبناء أمّتنا عن علمٍ أو غير علمٍ، يؤيّدونهم في دعوتهم.

وقد رأى الأعداء أنّ السيطرة على الأقوام لا تكون بالحديد والنّار فحسب، وإّما تكون بالسيطرة على العقول؛ والسّبيل لذلك يكون بمحو لغة الأُمّة حتّى تنفصل عن ماضيها وتراثها، فلا تجد فيهما ما يعينها على دعم حاضرها، فتخضع لطغيان الأعداء.

بداية العدوان:

• في الجزائر:

وابتدأت هذه الحرب بأن فرض الفرنسيّون على الجزائر لغتهم الفرنسيّة، ومنعوا تدريس العربيّة وتعليم القرآن، فلم يبق لهذه اللّغة وقرآنها إلّا الكتاتيب وبعض المدارس الدّينيّة، ولكنّ الله أنقذ دينه ولغته عن طريق جمعيّة العلماء المسلمين بالجزائر -التي كان على رأسها عبد الحميد بن باديس- فأنشأت المكاتب والمدارس لتحفيظ القرآن وتعليم الدّين واللّغة.

• في مصر:

وفرض الإنجليز لغتهم على مصر وجعلوها لغة تعليم المراحل الدّراسيّة كلّها، واستقدموا معلّمين من إنجلترا ليمحوّوا هويّة الطّلاب ويرغبوهم بحضارة إنجلترا، ثمّ طالب النّوّاب بإحلال العربيّة محلّ الإنجليزيّة في المرحلة الابتدائيّة، فأقرّت الجمعيّة ذلك -رغم وقوف وزير المعارف في وجه النّوّاب-، وأوجبت تعليم العربيّة بدل الإنجليزيّة التي ظلّت تُدرّس لمُدّة رُبع قرن!

● في السودان:

وقد عمل الإنجليز في السودان على إبعاد العربيّة عن ميادين التّعليم، فأنشأوا كليّة غوردن الإنجليزيّة وحصروا التّعليم العالي فيها -أو كادوا-، ليضطرّ المواطنون لتعلّم الإنجليزيّة في الابتدائيّة والثّانويّة، ولولا فضل الله ثمّ المعهد الدّينيّ في أم درمان والمعاهد المصريّة، لكان للسّودان شأنٌ آخر.

وكان هؤلاء الأعداء يشجّعون تعليم اللّغة الكرديّة في العراق والبربريّة في الجزائر، ويسرّون تعليمها.

وليست هذه هي كلّ الحرب التي شنّها الأعداء على اللّغة العربيّة وقرآنها، فقد افتروا على هذه اللّغة أنّها عقيمٌ لا تلد، بليدةٌ لا تتطوّر، صعبةٌ لا ترقى إليها الأفهام، ونادوا بهذه الشّعارات حتّى غدت في نظر كثيرٍ من العرب حقائق لا يرقى إليها الشّك!

مظاهر العدوان على العربيّة:

إحلال العاميّة محل العربيّة:

هبت النّيّات المشبوهة تكيد لهذه اللّغة تحت ستار التّجديد والإصلاح. وكانت المحاولة الأولى عندما حاولوا جعل العاميّة لغة الكتاب ولغة الخطاب حين دعت مجلّة (المقتطف) لذلك عام ١٨٨١م.

ثمّ في عام ١٩٠٢م ألف ويلمور -أحد قضاة الإنجليز في مصر- كتاباً اسمه (لغة القاهرة)، حضّ فيه على جعل العاميّة المصريّة لغة العلم والأدب، ووضع لها قواعد وضوابط، فاستقبلته مجلّة (المقتطف) بالثناء وقدمته للقراء.

ثمّ تلاه ويليام ولكوكس -مهندس ريّ في مصر- فدعا إلى هجر الفصحى وإحلال العاميّة، وقام بترجمة جزءٍ كبيرٍ من الإنجيل وفصولٍ من مسرحيّات شكسبير إلى العاميّة.

ثمّ تلاهما سلامة موسى، فنادى بما ناديا به، وازداد الدّعاة يوماً بعد يوم، وقال سلامة موسى في كتابه (اليوم والغد): "يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا [...]"، فإنّي كلّما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له [...]"، وكلّما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبّي لها".

● حجج الدّعاة في دعوتهم للأخذ بالعاميّة:

- (١) الاختلاف الكبير بين لغة الكتاب ولغة الخطاب، ممّا يحدّ من دائرة العلم.
- (٢) قصور الفصحى عن الوفاء بحاجات الحضارة.
- (٣) صعوبة الفصحى.
- (٤) جمود الفصحى.

● فساد حججهم:

إبطال الحجّة الأولى: إذا أرادوا الأخذ بلغة عاميّة، فعاميّات العالم كثيرة، أيّ عاميّة نأخذها؟ ثمّ إذا اخترنا إحدى اللّغات، فكيف سيفهم بنو العروبة من البلاد الأخرى اللّغة؟ وإذا كان الغرض من الأخذ بالعاميّة هو تنشيط العلم وتيسيره، فكيف يدعون إلى وأد آلاف الكتب التي دُوّنت بالفصحى؟! والدّنيا كلّها تؤمن أنّ العلم تراثٌ يُتمّ فيه اللاحق ما بدأه السابق!

إبطال الحجّة الثّانية: ليس لديهم أيّ دليلٍ على قصور اللّغة عن الوفاء بمطالب الحياة! كيف وهي التي امتدّت طاقتها حتّى وسعت كتاب الله؟ وهي التي عبّرت عن أدقّ دقائق الحياة وأنبأ المشاعر بمفرداتها وأساليبها، واستطاعت أن تفتن الأبناء من مغارب الأرض ومشارقها عن لغات الآباء والأجداد وتجذبهم إليها حتّى هبّوا يؤلّفون لها الكتب ويضعون لها القواعد؛ واستجابت هذه اللّغة لترجمة العلوم الأجنبيّة إليها، فاتّسعت لفلسفة اليونان وحكمة الهنود وأدب الفرس.

أمّا الرّدّ على حجج صعوبة الفصحى وجمودها، فستكلّم عنه فيما بعد.

إحلال الحرف اللّاتيني محلّ الحرف العربيّ:

أوّل من دعا إلى إحلال الحرف اللّاتيني محلّ العربيّ هو القاضي الإنجليزيّ ويلمور نفسه، في مطلع القرن العشرين، ثمّ تلاه عبد العزيز فهمي العربيّ، فكتب مقالاتٍ ورسائل، وتقدّم إلى مجمع اللّغة العربيّة بمشروعٍ كاملٍ لتبديل الحرف العربيّ باللّاتينيّ. ثمّ تلاه طائفةٌ كبيرةٌ، آخرها سعيد العقيل الذي بدأ بالتّنفيد وأصدر ديوان شعرٍ عاميّ طبعه باللّاتينيّة.

● حجج الدّعاة في دعوتهم لإحلال العامية محل العربية:

- (١) أنّ الرّسم بالحرف العربيّ سيجعل القراءة غير مسترسلة.
 - (٢) وأنّ التشكيل والحركات لا تجدي نفعاً لأنّها كثيراً ما تقع على حرفٍ قبله أو بعده.
 - (٣) وأنّ الاستغناء عن الحركات يجعل القارئ يتحيّر في معنى الكلمة.
- ومن هنا وجب في نظرهم إبدال العربيّة باللاتينيّة.

● فساد حججهم:

حين ننظر إلى هذه القضية نظرةً موضوعيّةً، يستبين لنا فسادها لأوّل وهلة.

أوّلاً: في العربيّة تسعة حروفٍ لا نظير لها في اللّاتينيّة، وهي: هـ، ح، خ، ص، ض، ط، ظ، ع، غ.

ولحلّ هذا الإشكال، رأى عبد العزيز فهمي أن نأخذ الحروف الزائدة بأشكالها العربيّة ونضمّها للّاتينيّة، ولكنّها ستكون متنافرةً في الشّكل.

أما سعيد العقيل، فقد كوّن أبجديّةً من الأحرف الـ ٢٦ اللّاتينيّة، أضاف إليها ٧ حروفٍ اخترعها، و ١١ حرفاً لاتينيّاً بالإشارات، زادها من عنده، فأصبحت ٤٤ حرفاً غير مفهوم.

ثانياً: اللّغة العربيّة تغاير اللّاتينيّة في أنّها مُعرّبةٌ، يتغيّر آخرها باختلاف موقعها من الجملة، ولهذا فإنّ الدّلالة على الحركات بالحروف ووضعها في صلب الكلمة لا يجعل الشّخص يكتب الكلمة صحيحةً إلّا بعد أن يعرف إعرابها!.

الضّربات الخفيّة:

بعد أن أخفقت دعوتنا العاميّة والحرف اللّاتينيّ ووجد الأعداء أنّ الضّربة الكبرى قد قُوبلت بدفاعٍ أكبر، قرّروا ضرب ضرباتٍ صغيرةٍ لا تُلاحَظ؛ فقاموا بـ:

- (١) الدّعوة إلى دراسة الأدب دراسةً إقليميّةً، فيكون لدينا أدبٌ شاميٌّ وآخر حجازيّ، وهكذا، وكم أخرجناهم حين كنّا نسألهم عن أدب أبي الطيّب وغيره ممّن كتبوا الشعر في أقاليم عديدة، في أدب أيّ إقليمٍ يمكن أن يُوضع أدبهم؟!

- ٢) ودعوة ثانيةً إلى الاهتمام بالأدب الشعبي؛ فأثمرت هذه الدعوة ثمرتها حين أنشئ في بعض الجامعات مجالٌ لتدريسه، فدرّسوا قصّة الزّير وتغريب بني هلال وغيرها، وقد يكون ذلك مستساغاً لو أنّنا انتهينا من استخراج كنوزنا الفصيحة كلّها!
- ٣) ودعوة ثالثةً إلى اصطناع الشعر المنثور الذي أفسح له الكتاب مكاناً رحباً في الجرائد والمجالات على الرّغم من عزوف الناس عنه.
- ٤) ودعوة رابعةً إلى إنشاء نحوٍ جديدٍ يقطع صلة الآباء بالأبناء، وقد ظهرت كتب النحو المبتدعة كالأحرفيّة، فتلقّتها الصّحف المشبوهة بالتّأييد، وفُرضت على مراحل التّعليم ردحاً من الزّمن، ولكن تصدّى الغيارى على اللّغة لذلك بكشف مساوئ هذا النحو وبيان زيفه، فأُلغي.
- ٥) ودعوة خامسةً إلى إبقاء الفصحى مع إلغاء الإعراب من أواخر الكلم، وقد نُفذت هذه الدّعوة في بعض الأقطار، ومن حسن الحظّ أنّ مسؤولي التّعليم تنبّهوا إلى خطرها، فأصدروا قراراتٍ تُوجب الأخذ بالإعراب.

مميزات اللغة العربية:

لغتنا ليست ملكاً لشعبٍ بعينه:

أقدّر أنّ هؤلاء الأعداء قد غفلوا عن أنّ هذه اللّغة ليست ملكاً لشعبٍ بعينه، وإمّا هي تراث العرب والمسلمين جميعاً على اختلاف ديارهم وأقطارهم، وأنّهم أسهموا جميعاً عبر تاريخهم الطّويل في إقامة أركانه، وعملوا يداً واحدةً على حفظه من عدوان العاديين.

وإنّ تراثاً هذا شأنه لا تستطيع أن تمتدّ إليه يدٌ بالتّحريف والتّبديل، وأيّ تغييرٍ في أسسه هو من حقّ جميع شعوب الأمة حين يجتمعون؛ وهم يوم يجتمعون سيكونون أشدّ حرصاً على لغتهم من أيّ يومٍ سلف، لأنّها هي التي وحدتهم.

● **أولاً: غنى اللغة العربية مادياً ومعنوياً.**

إنّ اللغة العربيّة أعجوبة الأعاجيب في وضعها المحكم وبنائها الدقيق المنظم، وليس على من أراد الاستيثاق من مبلغ قدرتها على التعبير إلّا أن يقف على معجمٍ من المعاجم؛ واللغة العربيّة لها معاجم، وسيجد فيها ما يُذهل لُبّه!

ومن الأمثلة: ما جاء من أثر الأشياء على اليد، فالعرب تفرّق بين هذه الآثار؛ فتقول: يد فلانٍ من اللحم غَمِرَةٌ، ومن الشحم زَهْمَةٌ، ومن الدهن زَنْجَةٌ، ومن العسل لزجةٌ، ومن الدّم ضَرِجَةٌ، ومن الوسخ دَرِنَةٌ، وكلّه على وزن «فَعْلَةٌ»، إلى آخر ما جاء في هذا الباب -وهو كثير-؛ وكذلك في كثرة أنواع الأموال وأسماء الحُمَيّات.

وغنى العربيّة ليس في الشّؤون الماديّة فقط، وإنّما في المعنويّة أيضاً، فالشّجاعة والجلود والغضب لهم مراتب، ولكلّ مرتبةٍ معنى يؤدّيها، ومن يقف على كتب فقه اللغة يجد لكلّ معنىٍ يحول في ذهنه لفظاً.

● **ثانياً: مناسبتها لكل زمان.**

وقد يقول البعض أنّ: لغةً نبتت أصولها في الصّحراء ونمت في بيئاتٍ لم تدرك عصر البخار والكهرباء، كيف لها أن تفي بحاجات عصر الذّرة والفضاء؟!

فنقول لهؤلاء: ما إن نزلت مركبة الأمريكيّين من الفضاء إلى الأرض، وفي فترة الدّهشة التي عمّت العالم، قام الدّكتور أحمد زكي بكتابة بحثٍ قيّمٍ عن هذه الرّحلة بكلّ دقّة وتفصيلٍ، لدرجةٍ يُخيّل معها للمرء أنّنا نحن الذين صعدنا إلى القمر لا الأمريكيّان! وهذا يدلّ على براعة الكاتب وعبقريّة لغة القرآن وقدرتها غير المحدودة.

● ثالثاً: ثبوت صيغها.

واللغة العربية إضافةً إلى هذا هي لغة ذات صيغ ثابتة النطق معلومة الدلالة، فمن قام بالفعل من الثلاثي صيغ على وزن «فاعل» ك: عابد، وما دلّ على ما وقع عليه الفعل صيغ على وزن «مفعول» ك: معبود، وكذلك في اسم الزمان والمكان والآلة والتعجب والتفضيل.

● رابعاً : الاشتقاق.

ثم إنّ اللغة العربية تتميز بالاشتقاق الذي حُرمت منه جلّ اللغات الحيّة، فأصبحت غنيّة بالمعاني ومتولّدة، فالاشتقاق يجمع ألفاظ اللغة إلى أُسَرٍ - كأُسرة-، ولكل أُسرة حروف مشتركة ومعنى مشترك، ثم تنفرد كل كلمة بصيغة خاصّة ومعنى جزئي خاص؛ فمثلاً، مادّة «نشر»، نشق منها الأفعال الثلاثة: نَشَر، يَنْشُر، انشُر، واسم الفاعل: ناشِر، واسم المفعول: منشور، وغيرها.

بينما باقي اللغات لا يوجد فيها اشتقاق، كالفرنسيّة، والإنجليزيّة التي هي لغة الفردية والشذوذ.

● خامساً: لغة يتصل ماضيها بحاضرها.

وأما قضية جمود هذه اللغة فباطلة؛ فلقد أمضّ أعداء هذه اللغة أن تكون اللغة الوحيدة بين لغات الأرض التي اتّصل ماضيها بحاضرها خلال خمسة عشر قرناً؛ فأبناؤنا في العصر الحاضر يستطيعون تلاوة القرآن الكريم والحديث الشريف وأن يفقهوا معانيهما، وأن يقفوا على آثار أجدادهم على مرّ العصور، وأن ينتفعوا بما في هذه الآثار ويتذوّقوا جمالها، وأن يجعلوا من ذلك كلّ مراكز التقاء يجتمعون عندها، بينما لا يستطيع سواد الشّبّان المثقّفين من الإنجليز -مثلاً- قراءة ما كتبه شكسبير منذ ثلاثة قرونٍ إلّا بمشقةٍ وعسرٍ، أمّا ما قبله فقد استحال عليهم جرّاء ذلك التّطوّر الذي يدعوننا إليه!

وبعد، فقد أوصل إلينا الآباء والأجداد هذه اللّغة متكاملةً سليمةً، و زادوا عنها أكرم الدّود، لذا من حقّ أبنائنا علينا: أن نوصل هذه اللّغة إليهم كاملةً، وأن نجاهد من أجلهم.

ومن حقّهم علينا: أن نسكت أفواه هؤلاء الذين يدأبون على تشكيكهم بلغتهم ويقنعونهم أنّهم مبتلون بها، وأن نكافح الذين يشعرونهم أنّ الحياة كلّها سهولةٌ ويُسّرٌ، وأنّ على الأشياء أن تتخلّى عن طبيعتها لمرضاقتهم.

ومن حقّهم علينا: أن نيسّر لهم تعلّم هذه اللّغة لا أن نميّهم بتيسير اللّغة نفسها! وأن يتعاون معلّمونا جميعاً على تعليمها مهما اختلفت موادّهم، وأن يضعوا نصب أعينهم أنّ اللّغة لا تُعلّم إلا بالممارسة والمحاكاة.

ومن حقّ أبنائنا على رجال الدّولة: أن يوقنوا أنّنا لا يمكننا أن نعول على المدرسة وحدها في تعليم اللّغة، وأنّ وسائل الإعلام من وسائل تعليمها، ومن هنا وجب عليهم أن يحزّموا على وسائل الإعلام استعمال العاميّة.

ومن حقّ أبنائنا على الحكومات العربيّة: أن تسنّ قوانين تُلزم باستعمال الفصحى في كلّ ما يُنشر من كتبٍ.

ومن حقّ أبنائنا علينا: أن يؤمن أدباؤنا أنّ لهم رسالةً لغويّةً إلى جانب رسالتهم الفكرية، حتّى يألف الأبناء أساليب لغتهم الصّافية، وبذلك تنساب لغة القرآن على كلّ شفةٍ، وتتردّد على كلّ مسمّعٍ، فتصبح في غدها القريب كما كانت في أمسها البعيد خير لغةٍ لخير أمةٍ.